ISSN(Print): 1813-4521 OnIine ISSN:2663-7502
Journal Of the Iraqia University
available online at: https://www.iasj.net/iasj/issue/2776

النسق الثقافي في مفضلية علقمة بن عبدة البائية

أ.م.د. ألحان عبدالله محمد

كلية التربية للبنات / جامعة الموصل قسم اللغة العربية

The Cultural pattern in the preference of Alqamah bin Abda Al-Ba'i

Assis.Prof.Dr. Alhan Abdullah Mohammed
College of Education for Girls / University of Mosul
Department of Arabic Language

10.58564/MABDAA.62.1.2024.751

Abstract

Addressing the study of the cultural pattern in the Alqamah bin Abda Al-Ba'i preference is an attempt to reveal the metaphorical nature and the force directed towards a text that hides under its shadows the masks of aesthetics and its linguistic coverings, its significance is determined through a duality that lies in the production and formation of the discourse first, and its impact on the recipient secondly.The study of the structure of the text has monitored three formats whose structure moved through cultural interactions and metaphorical relations, including material and moral, and the viewpoints varied to the sequences of its structure in terms of its centrality, marginality, strength and weakness, according to what it gained from the centralization of power. And as follows: First: The system of superiority of self / inferiority of women.Second: the mask format / the effectiveness of the trip.Third: The authoritarian pattern / case pattern**Keywords: style, culture, authority, center, implicit**

الملخص

إن التصدي لدراسة النسق الثقافي في مفضلية علقمة بن عبدة البائية هي محاولة تكشف عن الطبيعة المجازية والقوة المتجهة نحو نص تختبئ تحت ظلاله اقنعة الجمالية واغطيتها اللغوية، تتحدد دلالته عبر ثنائية تكمن في انتاج الخطاب وتشكيله أولا, وتأثيره في المتلقي ثانيا وقد رصدت دراسة بنية النص ثلاثة انساق تحركت بنيتها عبر التفاعلات الثقافية والعلاقات المجازية بما فيها المادية والمعنوية، وتعددت زوايا النظر إلى متتاليات بنيتها من حيث مركزيتها وهامشيتها و قوتها وضعفها بحسب ما أكتسبته من مركزية السلطة وعلى النحو الآتي :اولا : نسق فوقية الذات / دونية المرأة ثانيا : نسق القناع / فاعلية الرحلة ثالثا : النسق السلطوي / نسق القضية **الكلمات المفتاحية: النسق، الثقافة، السلطة، المركز، المضمر**

توطئة:

يعد النقد الثقافي فعلا مؤسساتيا ترتبط اصوله بعلوم شتى كعلم الاجتماع وعلم النفس والفلسفة، ويتجه إلى ابراز خصوصية النص من حيث ابعاده الجمالية سواء اللغوية والبلاغية، وهي رؤية مستندة إلى منجزات الدراسات الثقافية ومفهومها في مقاربة النص الادبي، وهنا تبرز الثقافة بوصفها "سمة اساسية لصيرورات المجتمع المعقدة والمتداخلة، ونحن نستبطن بواسطتها الاوامر, والضوابط, والنواهي، والمعاني من العبارات اللغوية المتداولة على لسان الجماعة ويؤدي التواصل دورا مهما في توطيد العلاقة بين اللسانيات والثقافة "(يوسف، ٢٠١٠، ٤٧) ومن الجدير بالإشارة أن اعتماد مفاهيم النقد الثقافي في اضمار المسكوت عنه لاثارة دهشة المتلقي تتبلور وفق رؤية أرسى أسسها عبدالله الغذامي في كتابه (النقد الثقافي)، إذ قدم توصيفا لمفهوم النقد الثقافي مشيرا إلى " وظيفته التي تتحدد بتعارض نسقين أو نظامين من أنظمة الخطاب احدهما ظاهر والآخر مضمر ناسخا للظاهر، ولا بد أن يكون ذلك في نفس واحد، أو في ما هو في حكم الواحد، شريطة أن يوصف النص بالجمالية والجماهيرية "(الغذامي، ٢٠٠٥، ٧٧) ، فضلا عن استناده إلى مرجعيات النص الاجتماعية والنفسية وخاصة فيما يتعلق بمفهوم نسق السلطة

المركزية ونسق الانوثة والذكورة والفحولة والهامش. ويتكئ النقد الثقافي في مقاربته للنصوص الادبية الى رؤية عميقة من لدن قارئ مثقف واع مدرك لحثيثات ما وراء النص ومتسلح بأدوات معرفية قادرة على تفكيك بنية النص بما فيها من افكار وهواجس متآلفة في سياقاتها الاجتماعية والثقافية والتاريخية من جانب، ومتصادمة بما تحتوي انساقها المضمرة من قدرة على المرواغة والممانعة من جانب آخر، ويكمن ذلك من " وراء اقنعة سميكة وأهم هذه الأقنعة واخطرها هو قناع الجمالية أي الخطاب البلاغي الجمالي يخبئ من تحته شيئا اخر غير الجمالية وليست الجمالية الا اداة تسويق وتمرير لهذا المخبوء وتحت كل ما هو جمالي هناك مضمر ويعمل الجمالي على التعمية الثقافية لكي تظل الأنساق فاعلة ومؤثرة ومستديمة من تحت القناع "(الخليل، د.ت، ٢٩٢)كما أن متابعة المحمولات النصية في النقد الثقافي والكشف عنها في المنجز الادبي تنحصر في " الإنتقال بالممارسة النقدية من نقد النصوص والعناية بجمالياتها الاسلوبية والبنائية إلى نقد الانساق المطمورة فيها أي نقد محمولاتها الثقافية وكشف مصادراتها المتخفية فيها, وهذا النقد ينصرف إلى متابعة عملية الإستهلاك الثقافي أي كيفية تلقي الثقافة ومتابعة حيلها ومواراتها" (مجموعة من النقاد العرب، ٢٠٠٣، ص٩١)والمعنى هنا يشير إلى المهمة الموكلة للقراءة الثقافية في الكشف عن الدلالات العميقة المنضوية في باطن النص والوظيفة التي يتمخض عنها عند قراءة الأنساق، فضلا عن اعطاء رؤية تصويرية حول طبيعة النظام الثقافي والبناء الاجتماعي من خلال الفاعلية الوظيفية المتكئة في حركتها على " حقيقة هيمنة الأنساق المؤسسة على فكرة الايديولوجيا ومفهوم المحتمل في صراع القوى الإجتماعية المختلفة " (عليمات، ٢٠٠٩، ص١١) وتأسيسا على ذلك فقد تضطلع القراءة الثقافية لأي خطاب سواء أكان نصا أدبيا أم غير أدبي بمهمة الكشف عن تعرية الأنساق المضمرة و " فك العزلة الثقافية عن النص والى توريطه في لجة الصراعات والأنساق والمؤسسات ليكتسب موقعا في خريطة العالم . ولن يتأتي ذلك إلا بتقليص الإهتمام المفرط بالأدبية مقابل النبش في حفريات ما وراء الأدبية التي ترهن سلطة النص في التمثيل الثقافي والانتاج الثقافي " (بوصحابي، ٢٠٠٦، ص٤٤). وهذا يعنى أن مهمة القراءة الثقافية للنص تستند " إلى ما هو أبعد من النص والقيم من جهة، والمؤسسات والممارسات الاخرى في الثقافة من جهة اخرى " (الرويلي والبازعي، ٢٠٠٠، ص٤٥) مستفيدة في الوقت نفسه من المناهج النقدية الحداثوية الأخرى وعلى الرغم من الاختلاف في الطروحات القائمة حول كل منهج، إلاّ أن ما يوحد بينهم يكمن في المهمة المنوطة إلى النقد الثقافي بوصفه نشاطا يستدعي موضوعا للبحث والتفكير والتعبير وينصرف هذا النقد الى متابعة بعدين : الأول النسق والثاني الثقافة ويتمخض عن هذين البعدين تركيب النسق الثقافي، إذ بهذه الدراسة يتعرف الباحث على ثقافة الفرد ومجتمعه لأن " الثقافة بصفة عامة تساعد على التمييز بين فرد واخر، وبين جماعة واخرى، وبين مجتمع واخر، بل ان الثقافة هي التي تميز الجنس البشري عن غيره من الأجناس، لأن الثقافة هي التي توكد الصفة الانسانية في الجنس البشري" (مجموعة من الكتاب، ١٩٩٧، ص٨)وفي سياق هذا التأسيس تكمن حقيقة النسق في قصيدة (علقمة بن عبدة البائية) بوصفها البنية المتكاملة التي يتحدد فيها مجموعة من العناصر تعمل سوية على تحقيق هدفها المنشود مسلطة الضوء على المهمش والدوني مرة، والسلطوي المركزي مرة ثانية، محافظة في الوقت نفسه على انسجامه وتماسكه وبيان القيم الجمالية والدلالات المحتشدة التي تلعب ادورا مختبئة تارة ومعلنة تارة اخرى في مكونات الخطاب الادبي .

اولا : نسق فوقية الذات / دونية المرأة

منحت الثقافة العربية للذات نسقا متعاليا وشرعنت له صفات التفرد و التميز وهو مركز الاستقطاب الذاتي، ومجال رؤية الذات بوصفها مركز الكون وهي ذات صفات خصوصية كيانية متعالية (مجموعة من النقاد العرب ، ١٩٩٧، ص٢٧٦). وقد برز نسق فوقية الذات في نص الشاعر بصورته المثالية المالكة لسمات التأسيس المتعالي على المرأة، وقد تجلى تأثير حضوره بفعل تأثير البيئة وثقافة المنظومة المجتمعية وما ينطوي تحتها من العادات والتقاليد ومن جانب اخر كان للمرأة حضور في النص، وشكل الحديث عن امتدادها الوجودي بما تملك من سمات يحدد فيها ازمة الذات الشاعرة وبمقدار ما تشهد من الإقصاء والتهميش والإختزال، بوصفها نسقا تداوليا تتضمن في ابنيتها العميقة انساقا ثقافية مضمرة ومخاتلة قادرة على احترام القوانين المسنة والأعراف والتقاليد التي تحد من الخروج عنها أو انكارها . والمرأة في الشعر صانعة للإشارة، ذلك أن فيض الاحساس والمشاعر التي تنتاب هواجس الذات الشاعرة تساعد الدلالة على الانعتاق والانطلاق في فضاء المتعدد واللامحدود ." وقد كشف نص علقمة بن عبدة عن نسق مضمر حقق للذات نسقا فوقيا واضمر في داخله التعالي على نسق المرأة، يقول (المفضل الضبي، ١٩٩٢ ، ص٣٩١-٣٩٦):

طحَا بكَ قلبٌ في الحِسان طروبُ بُعيدَ الشبابِ عصرَ حانَ مشيبُ

يُكلفني ليلى وقد شطَّ وليُـــها وعادَت عَوادٍ بيننا وخُـطوبُ

مُنعمـة مـــا يُسـتطاعُ كِلامـــها — على بابهـا من أن تُزارَ رقيـبُ

إذا غابَ عنها البعلُ لم تفشِ سِرَّه — وتُرضي إيابَ البعلِ حين يؤوبُ

فـلا تعـدِلي بيـنـي وبينَ مُغمَّرٍ — سقتكِ روايا المُزن حين تَصُوبُ

سقاكِ يمـانٍ ذو حَـبـيٍّ وعارضٍ — تروحُ به جُنـــحَ العشي جَنوبُ

ومـــا أنـت أم ذِكـرُها رَبـعيَّـةً — يُخـطُّ لـهـا من ثَرمداء قَليـبُ

يمثل حديث الشاعر عن محبوبته (ليلى) بوصفها شخصية اتسمت بالحياء وحفظ اسرار بيتها والولاء لزوجها ضمن تراكيب متنامية ، فضلا عن توصيف صفاتها الخلقية (منعمة ما يستطاع كلامها، في الحسان طروب)، والأخلاقية (إذا غاب عنها البعل) جملا ثقافية ونسقا متناميا يضمر في دلالته حقيقة تكمن في الإمتثال لأوامر السلطة الذكورية، وتمجيدها فضلا عن كونه وسيلة لتمرير نسق يعكس ثقافة المجتمع الجاهلي، والمسهم في تهميش النسق الأنثوي وتمكينها من الخضوع لسلطة الرجل فهناك ثمة نسق مضمر في داخل المتن السردي تتجلى فيه ترجمة كاشفة للسلوكيات الإيجابية للمرأة في عفتها وحشمتها واخلاقيات التعامل مع الزوج، فضلا عن احترامها للتقاليد المجتمعية والعادات السائدة بما ينطوي عليه حياؤها. فقد يسهم سرد الحديث عن نسق استعلاء الفحل وفوقيته في مقابل تهميش نسق المرأة ودونيتها وتحويلها إلى سلطة خاضعة للسلطة العليا / الرجل إلى واحترام مكانتها والإعتراف بخلقها وسلوكها، وهذا النسق لا يتحرك على مستوى الإبداع الأدبي الفني فحسب, بل على مستوى اثبات مصداقية العمل بموجب الشرائع المؤسساتية التي يفرضها المجتمع الجاهلي والانضواء تحت هيمنته وعدم تجاوزه، وهذه حقيقة ما يسعى اليه النقد الثقافي لإدراكه من خلال استبطان نصوصه وقراءتها وفق الاشتغال على الأنساق الثقافية ، فالمرأة في تكوينها الفيزيولوجي لا تستغني عن رقتها وانوثتها وعفتها وحيائها، واجمل ما في نفس الشاعر الانسانية أنه قدم رؤية واقعية من خلال الحوار الداخلي مع نفسه (طحا بك قلب في الحسان طروب) والاعتراف بأنه من يملك التعامل الخلقي مع الآخر/ المرأة، فإنه جدير بالبقاء وهذا ما اكدته النظرة الوجودية للقيم الاخلاقية. وأن الحوار الداخلي الصادر من الذات وسيلة لتمرير نسقه الإجتماعي الذي تتضح فيه شخصيته، وهذا ما أعلن عنه النص في بدئه بالحياة (طحا بك قلب في الحسان..) وتتسع حدة الحب وتشع ملقية بضوئها إلى الأمام وتضيف اليه مغزى جديد عن طريق التفاعل مع وحدة الزمن النفسية (بعيد الشباب عصر حان المشيب)إذ أن شحن النفس بمشاعر الحب ثم الإفصاح عن العمر المتجاوز قليلا ما هو إلاّ تأكيد للرؤية وتعميقها ومنحها درجة عالية من الشمولية، ويأتي البيت الثاني لتعميق الصورة والفعل (يكلفني حب ليلى...), فمن جهة يظهر في النص مواطن الجمال ويتحول إلى سجل يروي حقيقة المحتفى بها المرأة /الهامش وتسير المقاطع الشعرية لتصف مكانة الذات الانثوية وجمالها وسموها والمستجيب نسقها لقواعد العرف الاجتماعي وانظمته المركزية، والمؤسسة لمواطن تخليد مكانة المرأة في نفسه والاحتفاء بها من قبل السلطة العليا، ومن جهة اخرى يكشف النص عن افق جديد مشار إليه بالفعل الماضي المكرر (سقتك،سقاك) تجاه الذاكرة الإنسانية من خلال اقتران المرأة بمفردات الطبيعة (سقتك روايا المزن حين تصوب، سقاك يمان ذو حبي وعارض، ربعية، ثرمداء قليب) لتكون شاهدة على منزلتها ومكانتها.كما تعتلي في النص اعلاه المفردات الشعرية الثقافية للنسق الأنثوي / الدوني على النسق الذكوري/ المتعالي، وكأن النص يتجلى فيه روح الحرية غير المقيدة بأساسيات السلطة ومضامينها الثقافية. فقد اشتغل النص على نسق مناقض للسابق يكمن في تخلي المرأة عن الرجل وانصرافها عنه، في الوقت الذي يصرح فيه الشاعر بإمتلاكه العلم والدراية الواعيتين وتبصره بالنساء.

فإن تسألوني بالنسـاءِ فإنَّـني — بصيرٌ بأدواءِ النَّسَاءِ طَبيبُ

وتشكل رؤيته حولهن اواصر القرابة التي اسستها الثقافة، ويصبح جراء ذلك ممتهنا مهنة الطبيب وعالما بأدواء النساء.

وتكمن حقيقة جرأة النسق الانثوي في رفض الأنصياع لنسق الشاعر المتعالي وخرق كل اسباب الانقياد له أو الانتماء السلبي / الانفصال عنه، عند تأكيد الحس الإنفعالي والوجودي للشاعر وهو يسرد تجربة رصد الانهيار والذبول وتحوله إلى مأساوية انضواء الشباب وندب اندثاره.

اذا شاب رأسُ المرءِ أو قلَّ مَالهُ — فليس لـهُ من ودِّهنَّ نَصيـبُ

يُردنَ ثراءَ الـمالِ حيث عَلمنهُ — وشرخُ الشبابِ عندُهنَّ عَجيبُ

وقد تبلور نسق المرأة الرافض للرجل الذي تفيض منه مكونات صفاتها المعنوية والمادية إلى انفصام انفعالي ووجودي، وأن تأمله بمستقبل سيذهب الشباب ويحوله إلى زمن الشيخوخة هو من دمر حيوية ذاته وحول عشقه إلى كاهل يلوح في مفرقه بياض الشيب. فعندما غيبت شخصية الرجل بسبب الكهولة تمظهرت شخصية المرأة وعلا نسقها، مما يؤكد اثبات شخصيتها وانتفاء حقيقة اقصائها ومنطقيا يمكن للنسق أن يستمر في سرد تجربة الإنهيار والذبول، ومؤكدا حس المأساة والإنفصام بفعل احياء الماضي وتجاوز الذاكرة في سياق من الصراع، ويبلغ تصوير حدة التوتر الحاد إلى درجة من المأساة وتوجع للقلب ويكون كالداء له نصيب من الدواء، فقد بلغت درجة معرفته بالنساء حد الاكتمال الذي يملأ النفس راحة ويهبها طمأنينة ويقين . وبهذا التعبير المكرر (وإن ...فإنني) تبرز اهمية النسق الثقافي في الخطاب الادبي ولا سيما المتضمنة في اعماقها دلالات تظفر بالجوانب اللغوية، فلا " كل خطاب لغوي هناك مضمر نسقي، يتوسل بالمجازية والتعبير المجازي ليؤسس عبره قيمة دلالية غير واضحة المعالم، ويحتاج كشفها إلى حفر في اعماق التكوين النسقي للغة وما تفعله في ذهنية مستخدميها "(الغذامي، ٢٠٠٤، ص٢٨) وقد شكل كيان مفتتح النص والحديث عن ثنائية الرجل والمرأة نسقان، الاول: الظاهر المصرح بالقيم الاخلاقية للمرأة، وقد تجلى النص بمظهر بليغ متمثلا بالكشف عن استدعاء المستوى المعجمي للغزل (طحا، قلب, الحسان، طروب، ليلى, منعمة، كلامها، تزار, ...) وهذه الجملة الثقافية النوعية افصحت بدورها عن النسق الثاني : المضمر ولم تنتج دلالة الغزل بالمرأة والتشبيب بها وتعظيم مكانتها فحسب، وإنما انتجت حقيقة موارية يحقق بها مبتغاه ويفوز برضى الملك بعد تمجيده والاستنجاد به وهو ما كشف عنه صدر البيت الاول (طحا بك قلب)ومن هذا المنطلق تبدأ تمثلات النسق المضمر بالظهور كاشفة عن السبب وراء اقتران الحب بالعمر الذي يتراوح بين اقتراب انقضاء الشباب وقبل أن تجاوزه حدود الكهولة ويحين المشيب ففي ثقافة النسق الانثوي لا مكان لمعارضة الآخر أو مخالفة الرأي، فقد وجد الشاعر في النساء جميعا موقفا قريبا من (ليلى)، لذا نجد السياق الثقافي وضعه في مرتبة الفحولة لقدرته على اثبات سلطته ومكانته ازاء الأنثى المنقادة له انقيادا مطلقا والخاضعة له، بعد ما جرى في نسقها الانثوي تحويل صفاتها وقيمها الخلقية المنتسبة للفعل والعمل الى قيم مجازية متعالية، وان القيم الاجتماعية بما فيها قيمة الحياء والعفة والوفاء وحفظ اسرار بيتها قد تحولت إلى قيم نسقية يمثل فيها الشاعر المركزية العليا، لذا كونت القيم الخلقية النسق الإنساني العملي وهو الوفاء للذات السلطوية وبالنظر إلى النسق المهيمن في مفتتح النص الدال على السلطة المؤسساتية للقبيلة وسطوتها، تكمن مرجعية الثقافة العربية واسهامها في انتاج النسق الفوقي لما له من دور في انتاج ذات متعالية ترى فوقيتها ومركزيتها على المرأة.

ثانيا : نسق القناع / فاعلية الرحلة

تتمظهر فاعلية لوحة الرحلة في نص علقمة الفحل بوصفها محمولا رمزيا مكتظا بالدلالة الكاشفة عن قصدية النسق الحامل لموضوعة المدح، وقد مثلت الرحلة في عالم النص قناعا انطوى على علامة ثقافية بوصفها مصدر توجس وقلق حيال السلطة ويمثل رؤيوية ارهقت ترحاله متطلعا في الوقت نفسه نحو افق يجمع بين الميل والشوق إلى مبتغاه وبين رهبة الموقف ورغبة المطلب وبين التطلع إلى الحياة والخوف من الفناء وكان للناقة الحضور الفاعل بوصفها قناعا نسقيا للذات الشاعرة وهي تجتاز الصعوبات ومعتركات الأمور بإرادة قوية وصولا إلى الغاية المرجوة

فَدعها وسَلِّ الهمَّ عنكَ بِجسرةٍ ... كهمّتِك فيها بالرّدافِ خَببُ

وعيسٌ بَرينـاها كأنَّ عُيونـهَا ... قواريرُ في ادهانِهنَّ نُضوبُ

إلى الحارثِ الوهابِ أعملتُ نَاقَتي ... لِكَلكلها والقُصريَينِ وَجيبُ

تَتبـع افيـاءُ الظّـلالِ عَشـيَّةً ... على طُرقٍ كأنـهنَّ سُيـوبُ

وناجيـةٍ أفـنى ركيبَ ضُلُوعِها ... وحَارِكَـها تَهَجرُ فَـدؤوبُ

فأوردتُـها مـاءَ كـأنَّ جِـمامَهُ ... من الأجنِ حِناءُ مَعاً وصَيبُ

وتُصبحُ عن غِبِّ السُّرَى وكأنَّها ... مُولعةٌ تَخشى القَنيصَ شَبوبُ

تعفقُ بالأرطَـــى لها وأرادَهـا ... رجالٌ فَبـذَّت نَبلَـهُم وكَليبُ

لِتبلــغُني دارَ آمـرئٍ كان نائياً ... فقد قَرَّبنِي من نَداكَ قَـروبُ

تتجلى في مقطع النص تقنية المنولوج الداخلي الظاهرة لتؤسس الهيمنة في المضمر العائد على (الأنا /الشاعر)، وقد اختزل النسق حقيقة (الأنا) من الفرادة الجزئية إلى كينونة الكلية والشمولية والسيطرة على الأمور والتمكن منها وعلى الرغم من محاولة النسق المرواغة بين ظهور (الأنا) في ضمير المتكلم (وعيس بريناها، اعملت ناقتي، فأوردتها, قربني) واضمارها تحت تبعية الآخر (فدعها، وسل الهم، كهمك) . فقد تشتغل بنية النسق على التأسيس لهيمنة النسق السلطوي (الطاغية / الممدوح) وتقوم فكرة اشتغاله على اتخاذ (الناقة) واسطة تيسر له سبل العبور للوصول الى الممدوح (الحارث الوهاب اعملت ناقتي)، وبها يختزل الهم وتختصر المسافات ببنيتها وقدراتها الجسدية (وعيس بريناها، كأن عيونها، لكلكلها, تتبع افياء، وناجية ...تعفق)، فضلا عن طاقتها المعنوية في اجتياز مصاعب الطريق بالتحمل والصبر. وما حرص الشاعر على اقامة علاقة بينه وبين ناقته إلا ليثبت رمزية ناقته واسطرتها فهي ليست كأي حيوان عادي وإنما ناقة مثالية جمعت بين المادية المتمثلة في بنيتها الجسدية وبين المعنوية المتمثلة في قوتها والموجودة بصورتها الكلية في السماء توصله الى مغرب الشمس ليظفر بالخلود (عبدالرحمن، ١٩٧٦، ص١٨١-١٨٢) فعندما تتحدد غاية الرحلة على ظهر ناقة، وتتجلى اعباء مشقة الطريق الى الملك / السلطة المركزية يضمحل الالم والشكوى والعذاب ليصبح مثالا تبرز فيه قوى الحياة، فالدخول في عالم الصحبة مع ناقة سمحة قوية تقف ملائمة ومتوافقة في قيمها وواجباتها الخلقية لجو الحركة الاولى ومع تحدي الصعوبات الرامزة الى القهر والموت، فأن الشاعر يرفض الاستسلام بفعل خلق ثقافة نسق القناع وقد اكتسب من صلابة ناقته وقوتها قناعا للنفس الانسانية المؤهلة إلى تحدي المصاعب والانتصار عليها كوسيلة تقربه من الممدوح/ السلطة المركزية و التودد إليه، ويضع لذاته مكانة تتسم بالاستعلاء من خلال استحداث عامل القوة والحيوية بوصفه أنموذجا للإنسان المتطلع إلى حياة وممهدا الى الظفر بمكاسب موظفا نسقيه الطبقي الاجتماعي، والثقافي الطامح إلى تجميل ممارساته لتحقيق مطلبه على اكمل وجه.

ثالثا : النسق السلطوي / نسق القضية

يتجلى في نص الشاعر نسقا سلطويا مهيمنا وصورة ايجابية انطوت على صوت انساني رافضا الضعف والاستكانة يعلي من شأن الملك / السلطة الحاكمة (الحارث) واضفاء عليه الصفات المتمثلة بالشجاعة والكرم والهيبة، وهذه الرؤية اثبتت لنا أن ما يؤكد الانتماء القبلي للشعراء هو الفخر بأنسابهم ومآثر ابائهم واجدادهم وساداتهم وملوكهم في الشجاعة والنجدة والبأس لإبراز فحولية السلطة من جهة واظهار رؤية الشاعر الابداعية ومقدرته في كشف مواربات النسق المضمر .

إليكَ أبيتَ اللعنَ كانَ وجِيفُها — بمشتبهاتٍ هَولُهنَّ مَهيبُ

هَداني إليكَ الفَرقدانِ ولاحِبٌ — له فوقَ أصوَاءِ المِنَان عُلوبُ

بها جيفُ الحَسرى فأمَّا عظامُها — فبيضٌ وأمَّا جِلدها فَصليبُ

تُرادُ على دِمنِ الحِياضِ فإن تَعَف — فإنَّ المُندَّى رِحلةٌ فَركوبُ

فلا تحرمَنِّي نَائلاً عن جَنابة — فإنّي أمرؤٌ وسطَ القِبابِ غَريبُ

وأنتَ أمرؤ أفضَت أمانَتِي — وقبلَكَ رَبتني فضعتُ رُبوبُ

ولست لأنسيٍّ ولكن لمَلأكٍ — تنزَّلَ من جوِّ السماءِ يَصوبُ

تشكل (الأنا) في المقطع الاول من النص محورا مؤسسا لفكرة الهيمنة ليس على المستوى الانساني فحسب، بل على مستوى المكونات الطبيعية في جمل ثقافية تشكل نسقا لصناعة الأنا وجاعلا من نسقها موضع اهتمام من الآخر/ الممدوح، فمظاهر (الأنا) تختصر بضمير المتكلم (هداني،تحرمني، إني امرؤ, امانتي، ربتني، ولست لأنسي), ويدخل السرد الحكائي الذي يعمل عليه النص بين الانا ومظاهر الطبيعة تحت اطار ما يسمى بـ (شعرنة القيم) في التركيز على الذات المتكلمة، وما محاولة الانحراف الى تلك القيم الانسانية الا مبررا باتجاه المصلحة الفردية الذاتية التي تجعل من الآخر / الممدوح قوة متحكمة فيه وسلطة متعالية ينطوي تحت امرتها (الغذامي، ٢٠٠٥، ص٢٨٧) يبلور النسق ازمته الداخلية وحل التناقض الذي يسود العالم الداخلي للشاعر والقائم على تصعيد الدافع الاساسي، ومن الجلي بالذكر أن هذا النسق المتميز بالتودد للملك ومدحه بالخصال الايجابية بوصفه درع الشاعر ووقاؤه امتلك هيمنة وخصوصية، يفيض من الداخل في لحظة ازمة الشاعر وانهياره امام النسق السلطوي المرمز له بالقوة والصلابة في عالم متكسر ومتفتت. ووسط هذا العالم المتوتر والمليء بالعجز يأتلق نسق اخر باهر كأنه يلتمع

في ظلمة الموت (هداني اليك الفرقدان) صورة تحث على الرفق بالضعيف وتفيض بالحياة والحيوية في مقابل التوتر والقلق لذا جاء تثبيت هذه القيم كأساس مرجعي للوجود في خطاب انفعالي للشاعر بوصفه خطابا يحمل جملا ثقافية ادى فعله التأثيري الذي يضمن مصلحة الفرد لما فيه من قوة تنبع في اصلها من ضرورة وجودية فيها دفاع عن النوع من اجل البقاء والسلامة (طالب، ٢٠١٨، ١٠٤).ويتأرجح نسق الممدوح / سلطة القوة والمستهل بالتحية (اليك ابيت اللعن ...) بين طغيان حضور الذات بصيغة (الأنا) وبين الجمل الخبرية المؤكدة .(بأن) لتبدأ الحركة المضادة بابتعاث الفعل الانساني والمكتمل بنسق الممدوح / الفحولة .ويعمق صيغة الفعل واسلوب النفي (لا تحرمني) بحدته التي يبلورها النسق درجة التوسل والتودد، كما يعمقها ايضا الشطر الثاني المتفجر حيوية متمثلا في اقتران شخصه بالذبول والهشاشة اذا لم يلق استجابة لطلبه من الملك وقد يرد نسق المديح في موقع بنية تشكل فيه " حركة مضادة لوحدة سابقة تمثل برمز بسيط، شرطا اساسيا سلبيا (−) : التفتت والهشاشة والبؤس والانقطاع، والفقدان أو العوز،(...) ولا يرد المديح في بنية تبدأ بشرط انساني (+) :الفرح والغبطة والاكتفاء والحيوية والزمن المكتمل الخصب "(ابو ديب، ١٩٨٦، ص٥٠٦-٥٠٧) وقد حقق خطاب الشاعر حضوره العالي ووحد بين تجربة الفقد والقطيعة المنضويان في نسق الضعف والخذلان، وبين فعل الاستجابة والتحول الى تآلف وتواصل وجودي يتأتى بصور ممتلئة حيوية تتلوها قيم يشيد بها الشاعر ويتباهى وهي قيم معنوية تعد مصدرا للاعتزاز والفخر ومثل هذا النسق المشبع بالفضائل والقيم الايجابية المنسوبة لشخص (الممدوح) (وانت امرؤ...) . لا يمكن ان ينشأ اذا تأملنا النص من منظور المدح والفخر للممدوح، بل بوصفها سمات تقف كرد فعل وتخلق توازنا مضادا يحكي حالة الضعف والانكسار والمعاناة التي تمثلت في شخص الذات الشاعرة. فالقيم المحتفى بها هي قيم نمطية للشخصية الثقافية، وبما أن النسق هو نسق التأثير فإن النفس العربية قد جرى تدجينها لتكون نفسا انفعالية تستجيب لدواعي الوجدان اكثر من استجابتها لدواعي التفكير . فالذات العربية هي كائن شعري لا تتحرك الا حسب المعنى الشعري الذي تطرب له غير عائبة بالحقيقة (الغذامي ، ٢٠٠٥، ص١٠٥). ومن هذ المنظور ندرك الدور النسقي المبتعث من الفعل الانساني والبطولة الخالصة التي طغت على النص، ويتجلى ذلك في الفعل الماضى (فأدت بنو كعب بن عوف ..) تجليا لفيض الحيوية الداخلية في تجربة (المنذر بن ماء السماء) والبنية الجسدية لفرسه.

فأدّت بَنو كَعبِ بن عوفٍ رَبِيبَها وغُودرَ في بعضِ الجُنودِ رَبِيبُ

فوَ اللهِ لولا فارسُ الجونِ مِنهم لآبُوا خَزايا، والإيابُ حَبيبُ

تُقدِّمُه حَتى تَغيبَ حُجُولُهُ وأنتَ لبيضِ الدَّارعينَ ضَروبُ

مُظاهرُ سِربالي حديدٍ،عليهما عَقيلا سُيوفٍ مِخذمٌ ورَسوبُ

فقاتلتَهم حتى اتَّقوكَ بِكبشِهِم وقد حانَ من شمسِ النهارِغُروبُ

تجُود بنفسٍ لا يُجادُ بمثلها فأنتَ بها عند اللقاء خَصيبُ

تَخَشخشُ أبدانُ الحديدِ عليهمُ كما خَشخشت يُبسَ الحِصادِ جَنوبُ

وتنعكس هذه العلاقة التوحدية بين (المنذر بن ماء السماء وفرسه) في أن المكون الدلالي الأكثر بروزا في النسق السلطوي/ الذكوري هو صورة البطولة والحيوية اللتان تكتنهان النص.وقد انطلقت نقطة التمركز في النص من فحولة (الاخر / الممدوح) ازاء (بني كعب بن عوف) فهو مركز القوة والسلطة والهيمنة على الخصم وما اداه من دور في مواجهة الخصم كما أن اشتغال النص على فكرة تجذير القوة او التعاطي على الخصم يعد نسقا ثقافيا للقضية وفاعلا في النص ومؤسسا لصناعة الطبقة الحاكمة العليا في مقابل الطبقة المحكومة المتدنية . وتتجلى التقابلات المنضوية في نسق الممدوح (تقدمه، تغيب،شمس النهار غروب, تجود، لا يجاد) في بعث الجمال الثقافي بدلا من الجمال الشعري مؤدية دورها في منح القوة للسلطة المهيمنة في مقابل سلب الإرادة واضعافها من الخصم وقهره وتتجلى سلطة الممدوح العليا ازاء (الخصم) في النسق الشعري لتؤكد عملية الاختزال والتكثيف. وهكذا اسس نسق الفحولة / السلطة في القصيدة المدحية الاستحواذ على جوهر القوى المتعارضة ازاء الآخر / المقموع الدوني / الخصم.إن الاحتفاء بالبطولة التي شكلت تناميا لحيوية نسق الممدوح /السلطة المركزية، فجرتها الطبيعتان الداخلية المتمثلة بجسد الفارس والخارجية المتمثلة بجسد الفرس وهكذا يكون النسق الفحولي قد انبثق من اللحظة الماضية (وأدت ...فوالله) مرورا باللحظة الحاضرة (تقدمه). وانعكست العلاقة التوحدية بين الفارس وفرسه إلى مدى جديد يكمن في رصد حيوية الفعل الجسدي والبطولة الفردية المرتبطة بالجماعة

والسيطرة الكاملة على الأشياء فهي كالشرارة متمثلة في اكتمال قوة الفرس وصلابته لقد برزت صورة الفرس اوجا للقوة والمنعة والشاعر بهذه القوة ادخل عالما طقسيا سحريا قادرا على تحقيق مبتغاه. ولهذا السبب تتصاعد في النص لحظة تجربة القوة المضادة للممدوح في اشد حيوية وثراء، وقد يصل النسق السلطوي إلى هذه الحدة عن طريق الإرادة في النفس،وارادة الحافز الجسدي في (قاتلتهم حتى اتقوك بكبشهم), وقد حاول الشاعر اظهار حيوية النسق وصهره بفعل الكرم في (تجود بنفس لا يجاد) وشكل منها شيئا مطلقا. وهذا النسق اتسم بالمخاتلة والمراوغة ليمرر عبر نظامه المجازي استعطاف الملك لقضيته إن اظهار حيوية نسق الممدوح وجعل كل منهما – الإرادة الفاعلة وفعل الكرم– ابعادا للقوة هي محاولة لاثبات وانحسار الامكانات المتفجرة نشاطا وثراء عند المؤسسة الثقافية / السلطة المركزية للممدوح. وفي الوقت نفسه فرصة لتمرير نسق الضعف والهشاشة حيال الذات الشاعرة, إذ نشهد اكتشافا لنسق السلطة متمثلا في صور متجددة لحركة تتصاعد بحيوية لا تخمد وبصلابة لا تتكسروهكذا اظهر تشكل نسق الممدوح منظومة الصفات الشعرية التي تربى عليها الذوق الثقافي واصبحت انموذجا للسلوك القيمي والعلامة الخطابية المبنية على اساس الرغبة والرهبة بين المادح والممدوح.

وقاتـلَ من غسانَ أهلُ حِفـاظِها — وهنبٌ وقاسٌ جَالـدَات وشَبـيبُ

كأنَّ رجـالَ الأوسِ تحتـض لَبـانِهِ — وما جَمعَـت جَلٌّ مَعـاً وعَتـيبُ

رَغا فوقَهُم سَقبُ السماءِ، فَداحضٌ — بِشكَّـتِهِ لـم يُسـتلَب وسَليـبُ

كأنَّهُـم صابَـت عليـهم سَحـابـةٌ — صواعِقـها لطـيرِهِنَّ دَبيـبُ

فلـم تنـج إلا شطـبةُ بلـجامِـها — وإلاَّ طِمـرٌ كالقـناةِ نَجـيـبُ

وإلاّ كَمـيٌّ ذو حِـفـاظ كـأنـهُ — بما أبتلَّ من حَدِّ الظَبات خَصيبُ

وأنـتَ أزلـتَ الخُـنزوانةَ عنهم — بضربٍ له فوقَ الشئُونَ دَبيـبُ

وأنتَ الـذي آثـارهُ فـي عدوِّه — من البُؤسِ والنُّعمَى لهن نُـدوبُ

وفي كـلِّ حيٍّ قد خَبطتَ بِنـعمةٍ — فحُق لشأس من نَـداكَ ذَنـوبُ

منحت الجمل الثقافية (تخشخش....., وقاتل من غسان ....,كأن رجال..., رغا فوقهم..) النسق الفحولي صفات التعالي والمتمثلة بالصيغة الجمعية المغروسة بالنحن، كما حملت هذه الجمل الثقافية بعدا خاصا منحها الشاعر للسلطة الطاغية، فالثقافة تستلهم معطياتها الخطابية وتستعيد صياغتها فهي المؤسسة لتعميد نسق المركز.كما نلحظ في سياق النسق المدحي كثرة الجمل الثقافية المغلفة بالجمال الشعري، فقد جرى الافتخار بالقيم المتشربة بالشجاعة والقوة، وقد اتت مشروعية هذا الافتخار من الدلالة المضمرة للجملة الثقافية كون الخطاب الشعري جاء مندرجا في اطر القسوة والعنف سبيلا لمنازلة الخصم والغاء دورهم، وبهذا يحقق النسق مشروعيته الذي يبتغيه الشاعر اذا جاء متخفيا تحت غطاء السياسة ومما يثبت نسقية النص انثيال الدلالات النسقية التي تؤول على العنف وتمجيد المعاني الحماسية (قاتلتهم، اتقوك, تخشخش, ابدان الحديد, صابت عليهم سحابة, صواعقها, لم تنج الا شطبة ، والا طمر، الاكمي), فقد اكدت الدلالات السياسية التي وظفها الشاعر مشروعية الخطاب الثقافي (قاتل من غسان،وهنب وقاس جالدات وشبيب،رجال الاوس). كما اسبغ الشاعر على النسق الشعري أفضل الصفات التي تشع بالمجد والسؤدد على قبيلة غسان في مقابل تهميش الآخر، جعل مشروعية الخطاب خارجة عما يتصوره العقل البشري لما فيها من تناقض حقيقة الفكري والمعقول والوعي الادراكي والمندرج بسياق المرجعية الاجتماعية للممدوح في توظيف الصور الخيالية التي القت بظلالها هالة تقديسية ارتبطت بها قبيلة الممدوح (رغا فوقهم سقب السماء)، فقد وظف الشاعر الجماليات البلاغية كوسيلة تستطيع من خلالها" الرمزيات أن تسوق القبحيات وأن تحسنها، وهذا هو احد وجوه الصناعة الثقافية وكيف أن البشر تصنع لنفسها نموذجا رمزيا من منظومة الحسب والنسب وعلاقة هذه الثنائية بالمجد والسلطة" (الغذامي، ٢٠٠٩، ص٢٤). إن الشرارة المولدة لهذا التكلف هي حركة الاندماج الفعلي والاتحاد بين الشاعر وممدوحه، ومن الدال جدا أن الإنصياع لنسق السلطة العليا والإمتثال لأوامرها يأتي كالشرارة المنقدحة لتمرير غاية الشاعر واجبار كسره وتحقيق مطلبه.

الخاتمة

■يأتي تلمس فاعلية الانساق الثقافية المضمرة من قدرتها على المراوغة والمخاتلة، واسهامها في القدرة على تنمية ثقافة المتلقي وانماط تفكيره.

■ تجلت تجربة الشاعر في ابداعه الادبي والكامن في تمازج نسقين متضادين تربطهما حادثتان ثقافيتان بغية اثبات المعنى في ذهن القارئ.

■ تعد ثقافة النسق الفحولي التي تتنبئ بقيم المرأة الخلوقة ووصفها بالمثل الاعلى ثقافة شعرية ويكاد لها وجودا عند النساء الاخريات فهي لا تختلف عن غيرها.

■تأتي علاقة النسق الفوقي في مقابل النسق الدوني ليس من قبيل الانعزال والانصرام بل من اقرار بالحدة والكثافة ومحرك رئيس يمهد للعلاقة بين الشاعر وممدوحه.

■مثل نسق القناع / الرحلة حالة القوة والتحدي التي امتلكها الشاعر بعد أن شد العزم بالرحيل إلى السلطة جاعلا من الرحلة وموضوعة المدح طقسا احتفاليا واستعدادا للثناء على الملك وتقديسه بغية تحقيق مطلبه.

■ يعد نسق الأنا العليا وسطوته دليلا ووسيلة لتمرير هدفه بغية استعلائه على المرأة و ابقاء نسق التواصل مع الممدوح / السلطة المركزية نسقا فعالا مصطنعا ناجحا بعيدا عن الاخفاقات.

المصادر والمراجع

- أبو ديب، كمال . (د.ت) . الرؤى المقنعة، نحو منهج بنيوي في دراسة الشعر الجاهلي – البنية والرؤيا–. (د.ط). الهيئة المصرية العامة للكتاب. مصر.
- الخليل، د.سمير . (د.ت). دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي –إضاءة توثيقية للمفاهيم الثقافية المتداولة. (د.ط). دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان.
- الرويلي، د.ميجان، البازعي، د.سعد. (٢٠٠٠). دليل الناقد الأدبي(اضاءة لأكثر من خمسين تيارا ومصطلحا نقديا معاصرا). ط٢. المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء. بيروت.
- الضبي، المفضل. (١٩٩٢). المفضليات. ط١. دار المعارف. مصر.
- طالب، د.عبدالقادر. (٢٠١٨). "النسق الثقافي وسمات التشكل في الخطاب الادبي (قراءة من خلال تجربة النافد " يوسف عليمات")". دراسات لسانية: ٢ (١٠).
- عبدالرحمن، د.نصرت. (د.ت). الصورة الفنية في الشعر الجاهلي في ضوء النقد الحديث. مكتبة الأقصى. عمان.
- عليمات، يوسف. (٢٠٠٩). النسق الثقافي قراءة في انساق الشعر العربي القديم. ط١. عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع.الاردن.
- الغذامي، د.عبدالله، اصطيف، د.عبدالغني. (٢٠٠٤). نقد ثقافي أم نقد ادبي. دار الفكر المعاصر. بيروت. لبنان. دار الفكر. دمشق. سورية.
- الغذامي، عبدالله. (٢٠٠٥). النقد الثقافي قراءة في الانساق الثقافية العربية. ط٣. المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء. المغرب.
- الغذامي، عبدالله. (٢٠٠٩). القبيلة والقبائلية أو هويات ما بعد الحداثة. ط٢. المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء. المغرب.
- مجموعة من النقاد العرب. (٢٠٠٣). النقد الثقافي " مطارحات في النظرية والمنهج والتطبيق"، بحث مدرج بكتاب (عبدالله الغذامي والممارسة النقدية والثقافية). ط١. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت. لبنان.
- مجموعة مؤلفين. (د.ت). نظرية الثقافة. ترجمة : علي سيد الصاوي. مراجعة: أ.د. الفاروق زكي يونس. (د.ط). عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب. الكويت .
- يوسف، د.عبدالفتاح. (٢٠١٠). لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة _ فلسفة المعنى بين نظام الخطاب وشروط الثقافة. ط١. الدار العربية للعلوم. ناشرون. بيروت. لبنان. منشورات الاختلاف. الجزائر.

Resources and references

■ Abu Deeb, Kamal. (w.d.) Convincing visions, towards a structural approach in studying pre-Islamic poetry - structure and vision. (w.e.). Egyptian General Book Authority. Egypt.

■ Al-Khalil, Dr. Samir. (w.d.). A guide to terminology for cultural studies and cultural criticism - a documentary illumination of current cultural concepts. (w.e.). House of Scientific Books. Beirut. Lebanon.

■ Al-Ruwaili, Dr. Megan, Al-Bazai, Dr. Saad. (2000). The Literary Critic's Guide (an overview of more than fifty contemporary critical trends and terms). 2nd ed. Arab Cultural Center. White House. Beirut.

■ Al-Dhabi, the favorite. (1992). Favorites. 1st edition. Dar Al Maaref. Egypt.

■ Talib, Dr. Abdul Qader. (2018). "The cultural pattern and the characteristics of formation in literary discourse (a reading through the experience of the author "Youssef Alimat")." Linguistic Studies: 2 (10).

■ Abdul Rahman, Dr. Nusrat. (w.d.). The artistic image in pre-Islamic poetry in light of modern criticism. Al-Aqsa Library. Oman.

■ Alimat, Yusuf. (2009). The cultural pattern: A reading of the patterns of ancient Arabic poetry. 1st edition. Modern World of Books for Publishing and Distribution. Jordan.

■ Al-Ghadhami, Dr. Abdullah, Estif, Dr. Abdul-Ghani. (2004). Cultural criticism or literary criticism? House of Contemporary Thought. Beirut. Lebanon. Dar Al-Fikr. Damascus. Syrian.

■ Al-Ghadhami, Abdullah. (2005). Cultural criticism is a reading of Arab cultural patterns. 3rd edition. Arab Cultural Center. White House. Morocco.

■ Al-Ghadhami, Abdullah. (2009). Tribe and tribalism or postmodern identities. 2nd ed. Arab Cultural Center. White House. Morocco.

■ A group of Arab critics. (2003). Cultural criticism, "Discourses on theory, method, and application," research included in the book (Abdullah Al-Ghadhami and Critical and Cultural Practice). 1st edition. Arab Foundation for Studies and Publishing. Beirut. Lebanon.

■ A group of authors. (w.d.). Culture theory. Translated by: Ali Sayed Al-Sawy. Review: Prof. Dr. Al-Farouq Zaki Younis. (w.e.). The World of Knowledge, a monthly cultural book series issued by the National Council for Culture, Arts and Literature. Kuwait .

■ Youssef, Dr. Abdel Fattah. (2010). Linguistics of discourse and systems of culture - the philosophy of meaning between the system of discourse and the conditions of culture. 1st edition. Arab House of Science. Publishers. Beirut. Lebanon. Difference publications. Algeria.